خطاب الهوية المؤسلبة.... تمثيلات الأنا في مرايا الآخر... بوابة الذكريات لآسيا جبار

الأستاذ الدكتور رامي أبو شهاب
جامعة قطر

تاريخ الاستلام: 2018/5/29
تاريخ القبول: 2018/11/17

تكوين النص، شمولية والإدراك:

تبرز خصوصية هذه المقاربة من طبيعة النص، وتكوينه، فنحن بصدد اكتناه نص سردي سيري للكاتبة الجزائرية آسيا جبار بعنوان " بوابة الذكريات " الذي يعدّ ترجمة للكتابها الذي صدر بالفرنسية ، ولكن بعنوان مغاير، هو " لا مكان لي في بيت أبي". ولعل عنوان الكتاب الأصلي يعدّ أشد صلاحية للاتصال بأطروحة هذا البحث من حيث التأكيد على العلاقة التقابلية القائمة بين الأ نا والذات من جهة، والآخر من جهة أخرى، فثمة الطرف الأول أي "الأنا" بصيغتها الداخلية القلقة السّ اعية إلى اكتشاف، ومعاينة العالم بغية إدراك جوهرها، في حين أن الطرف الثاني يتحدد بالآخر الذي يتحدد أولاً بالأب الذي يشكل مركزاً لرؤية العالم، بالتوازي مع ذوات أخرى مؤسلبة، أسهمت في تكوين الأنا لذاتها، وفهمها لما حولها.

لا ريب بأن الكتاب في نسخته الفرنسية قد حمل عنواناً دالاً، فالتحليل المعني بالقيمة النصية أو الدلالية للعنوان بوصفه عتبة أولى ينطوي على أسئلة تتعلق بالأسباب والدوافع التي جعلت الأنا تصرح بفقدانها لموضعها في بيت والدها، مما ينقلنا إلى مستوى تحليل عميق، كوننا أصبحنا متورطين بأسئلة داخلية تتأسس على وضعية ذات طبيع ة اعترافية، وهي صيغة سردية مورست من قبل، ونموذجها اعترافات أوغسطينوس. غير أن آسيا جبار تبدو في نصها هذا على وعي وإدراك عميقين ، وبوجه خاص تكوينها الجندري على اعتبار أن الشّ خصية المركزية في هذا العمل أنثى، وهذا أسهم لا بصوغها (أي الشخصية) تبعاً لتكوينها البيولوجي فحسب، إنما أيضاً انطلاقاً من سياقها الاجتماعية بوصفها أنثى كما أشارت سيمون دي بوفوار في معرض تحليلها لتكوين الأنثى ضمن شبكة سياقية [1]، ولعل تفسير ذلك يعود إلى أن الأنثى رهينة سياقات

[1] سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، ط1، عمان، الدار الأهلية، 2008، 67.

ثقافية وتاريخية واجتماعية، والأهم من ذلك تضافر هذا البعد مع نشوء وعي نفسي يتصل بكل ما يحيط بها، ومن هنا، فإننا نتوسل تطبيق مقولات نقدية مركبة تتضافر فيما بينها، وفي مقدمتها تنظيرات الدرس الثقافي بتقاطعه مع تنظيرات بول ريكور، بالإضافة إلى جاك لاكان، والكتابة النسوية، وبالطبع خطاب ما بعد الاستعمار.

تتأسس مقاربتنا منهجياً على ما يعرف بإدراك الذات عبر تكوينها اللغوي المبدئي، فضلاً عن انتشارها في النص على شكل دوال تعالج " الأنا – الشخصية" في أفق الآخ ر الذي نتناوله في هذه النص من خلال عدة مستويات.

تنطلق آسيا جبار في نصها الروائي السيري الروائي " بوابة الذكريات " من إدراك ذاتها الأنثوية من مرحلة الطفولة المبكرة التي تتكشّف عبر مجموعة من الدوال اللغوية بما تحمله من مرجعية نفسية كامنة . هذه المرحلة ينظر لها الباحث الفرنسي جاك لاكان على أنها المجال الذي تتكون فيه الذات، أو تنشئ صورتها عن نفسها أو " الأنا" في المرآة[1]، وهذا يبرر بمحاولة التحليل النفسي تقديم تفسيرات لكيفية ظهور إحساسنا الشخصي بهويتنا النوعية [2]، بيد أننا نضيف بعدا آخر يتحدد بعلاقة الأنا مع الآخر، ويتجلى هذا نصياً من خلال أنساق ثقافية ذات طبيعة سلطوية كامنة مما يشكل انحراف الذات عن صيغتها الطبيعية إلى صيغ أخرى، وبعبارة أخرى فقدان التدرج الطبيعي لاكتشاف الذات ، وهذا يتجاوز التفسير البيولوجي للأنوثة نحو أثر المستوى الاجتماعي [3]، في حين يتعزز هذا نتيجة الحوادث التي تنشأ من مكونات وانطباعات، تتفق في معظمها على أن مفاهيمنا تجاه الذات ربما تتعرض للانتهاك، ولكن هذا مرتهن بالآخر، ومسلكه، بما في ذلك الأم، والأب، والعشيق، والصديقة، بالإضافة إلى المجتمع الذي يتعرض هو الآخر إلى مستويين مؤسلبين، فثمة المستعمِر والمستعمَر، بما في ذلك الإشكالية اللغوية التي تتخلل كافة العناصر السابقة.

تكمن أهمية هذه المقاربة من خلال قدرتها على تقديم قراءة جديدة للنص الروائي السيري الذي ينطوي على ذخائر نصية تبعاً لمنط ق التلقي، ولا سيما بيان المكونات التي صاغت و عي الذات، بالتضافر مع التكوين الأنثوي المركب والمعقد في سياق استعماري تاريخي، مما يعني بأن ثمة حالة مركبة أو مضاعفة تتعاضد من قبل سلطة الخطابات التي تسعى إلى تمثّل الهيمنة، والاختلاف، والهشاشة مقابل وعي آخر،

[1] Jacques Lacan, Ecrits, translated by Bruce Fink, New York. W.W. Norton & company, 2006, P.94.

[2] بام موريس، الأدب والنسوية، ترجمة سهام عبد السلام، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002، ص 152.

[3] بام موريس، المرجع السابق، ص 154.

يحاول تقويض، أو معالجة التداعيات النفسية، من منطلق بأن الذات مريضة بالاغتراب الجنسي أو الثقافي، أو الاجتماعي، وبذلك فهي لا تشفى إلا باللغة كما شاع في الدراسات النفسية.

الآخر في كتاب آسيا جبار، يبدو متعدداً بحيث يشمل الذوات القريبة من عالم الشخصية- السارد، إذ ينطلق النص من تعالقات عميقة مع "الأم" التي تشكل عالم الطفل الأولي، أي بوصف "الأم" قيمة جمالية تعرضت للهدم، أو التشويش، فضلا عن الأب الذي يتخذ صورة جدلية في تكوين عوالم الطفلة، بحيث تحول هو الآخر إلى نسق تخريبي لوعي الذات، أضف إلى ما سبق الأقران أو الأصدقاء، وغير ذلك من الشخصيات التي تعمل باعتبارها دوال، تسهم في معرفة الأنا، ولكن هذا النهج لا يشكل إلا تفصيلاً صغيراً، إذ يتسع ليطال السياقين الزمني والمكاني " تاريخياً" بوصفهما عوامل لتشكيل مرآة تمكن السارد " فاطمة" من إدراك ذاتها، وتحديداً في القرية الاستعمارية " شرشار"، وهنا نحتكم إلى أفق ما بعد كولونيالي، بالتجاور مع التداعيات النفسية على الشخصية التي تتقاطع في تكوينها مع أكثر من مكوّن، ومنه الأشد الأهمية إكراهات الأنوثة بشقيها الجسدي والثقافي باعتبارها – أي الأنثى- تنتمي إلى المهيمن عليه اجتماعياً وثقافياً مما يعمق الإحساس بالمشكل الإنساني بمظهره الوجودي.

تتشكل اللغة في مجال العلاقات اللاشعورية قطاعاً يمكن أن يختبر، ولكن من حيث تأسيسه لنموذج من الملامح بحيث تتحول اللغة إلى منفذ، فالذات الساردة في تكوينها الشعوري والنفس ي، تنطلق من بنى لا واعية في تشييد ذاتها، غير أنها خضعت لعدد من الإكراها ت التي انعكست في بنية النص ، وهذا ما نحاول أن نؤكده من خلال هذه المقاربة القائمة على عدة نوافذ منهجية ، ولا سيما في تكوين اللغة، والبنيات النصية المتعالقة بالتكوين الثقافي، ولهذا نستعين بأفكار جاك لاكان، ولا سيما مفهوم المرآة ، وما يتبع ذلك من الإدراك المتبادل بين الأشخاص[1]، ونشوء اللغة بوصفها دالاً على التأسيس الذاتي، بالتضافر مع منظور بول ريكور الذي يميز بين مفهومين يتصلان الهوية السردية ، وبوجه خاص من ناحية الثبات والتغير، وبذلك فإن البحث يشمل المنطلقات لتظليل المساحة الدلالية، والتكوينات اللغوية في فهم النص؛ ولهذا فإن السرد التي تضطلع بها الأنا – شخصية فاطمة- في نص آسيا جبار ينضح بالتعبيرات اللاشعورية تجاه عالمها الذي يبدأ في النص من مرحلة مبكرة، ونعني طفولتها، ومن ثم نعرّج على البنى الشعورية للذات، وعلاقتها مع الآخر، مع الإشارة إلى بيان الأثر الكولونيالي ، وتداعياته على الذات التي يحضر وجودها في سياق المكون الكولونيالي ، والذي يشكل جزءاً من المرآة التي تنعكس من خلالها الاختلافات بين الذات العربية أو المسلمة والذات

[1] مالكوم بويي، جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المشروع، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1999، ص ٨٤.

الأخرى، ونعني الأوروبية أو والمسيحية (المستعمرة) كما الآخر بالمطلق، ففي هذا النهج الذي نتبناه قدرة على توخي البينية بما في ذلك الدلالات المختلطة التي تتنازعها مكونات الذات النفسية والثقافية والتاريخية.

تشير موسوعة ستانفورد للعوم الفلسفية إلى أن بول ريكور قد سعى لاكتناه الذات الإنسانية من وجهة انخراطها في أنشطة تبرز قدرتها على أن تكون هذه الذات عينها، بالتوازي مع إدراك علاقتها مع الآخرين، ومن هنا، يمكن أن نفهم ذاتنا حين نتمكن من فهم العالم الذي حولنا [1]، وبين هذين المكونين للشخصية تبرز مفاهيم تتعلق بالمفهوم السردي للذات "الشخصية"، والتي تتأسس على نواة ثابتة **" تصاحب الذات في الزمان، والمكان، وتصبح هوية سردية، أي ذاك الذي يقدرأن يروي قصة حياته بأكملها "** [2]، وهذا يعني بأن ثمة تشكيلاً من الإضافات والحذف لخلق نوع من المنحى الجدلي بين الهوية الذاتية والهوية العينية، وبهذا فإننا نحاول أن نتلمس في نص آسيا جبار هذا الجدل الذي سعت الكاتبة إلى تقديم ذات شخصيتها "فاطمة"، ولكن مقابل علاقته مع الآخر، وأثر ذلك على تشكيل الأن في حالة إدراكها القصوى، أي بعبارة أخرى الذات أو الذاتية التي تقدم صيغا متعددة للهوية[3]، أي ما يمكن نشدد عليه من خلال كلمة " عينها " التي تعد جزءاً من موضع التساؤل أو الكينونة أو الوجود ؟ وهذا ما يعادل المتطابق الذي لا يتغير مع الزمن [4]. من الجزئية السابقة تحديداً نكتنه نص آسيا جبار في كتاب سيري سردي، على الرغم من أن العمل مموه بعبارة "رواية" غير أنه يبدو أقرب إلى نص سيرة ذاتية، ولا سيما إذا أقمن ا تطابقات بين مؤلف النص " آسيا جبار" التي واسمها الحقيقي " فاطمة"، في حين أن ال شخصية تحمل اسم فاطمة، وبذلك فإن ثمة إنكار للأنا، وفعل انزياح في تثبيت الذات وتقدير هوية جديدة.

يخضع الدال الأول في العمل بواسطة وعي طفولي، يختزن مشاهدات الذوات الأخرى في مدى ال رؤية المبدئي، فلا عجب أن نجد في الفصول الأولى ما يشي بهذا التكوين اللغوي في بناء الأنا ضمن تكون عالم الأب، بالإضافة إلى الآخر ين ضمن عناوين : الأم الشابة " و "الأب والآخرون " [5]، إذ تتضح من خلال هذه الفصول

---

[1] Pellauer, David and Dauenhauer, Bernard, "Paul Ricoeur", *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* (Winter 2016 Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL = <https://plato.stanford.edu/archives/win2016/entries/ricoeur/>.

[2] مقدمة مترجم كتاب الذات عينها كآخر، بول ريكور، ترجمة جورج زيناتي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص ٥١.

[3] ينظر بول ريكور، المرجع السابق، ص ٧٠.

[4] المرجع نفسه، ص ٧١.

[5] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر، سيديا، ٢٠١٤، ص ٤٧.

معالم دلالية، تتعلق بآثار كامنة لهذه الذوات، ولا سيما القريبة التي تقع في محيط الطفلة أي " السارد،" والذوات " المسرود عنها " -في الوقت عينه- كونها تستدعي اختبار آلية الوعي بالأنا عبر التكوينات النفسية بوصف الثانية إحالة إلى مراكز الاختلاف انطلاقاً من تعريف الذات، ولكن في حدود الذوات المقا بلة، أو الموزاية، فالأم والأب والجدة والأقران ، والعشيق، تعمل عناصر مجتمعة باعتبارها منطلقات مبدئية أسهمت في صوغ وعي الأنا، فالأم ترمز إلى قيم جمالية، ولكنها مستلبة مما يشكل ضغطاً على الوعي نتيجة التماثل الجندري، فالفتاة لا ترغب في أن تكون امتداداً للأم (السلبية) على الرغم من أنها تشكل في وجدانه ا نموذجاً جماليا فاتناً، أو مثالياً، وهو مما لا يتسق مع السياق الذي يحوط الأم المؤسلبة فيما بعد.

يزخر النص بجزئه الأول بسرد يطال الذوات القريبة " الآخر"، ويتمحور حول الأم بوصفها عالماً أنثويا نقيا " إيجابياً"، ولكنه سرعان ما يتلاشى أو يتراجع حضوره في النص، أو في الوحدات النصية اللاحقة، حيث تطغى الذات الأنثوية للشخصية على الأم، وتحجبها، وهنا نرى امتثالاً واضحاً لتغييب الأم في النص، ولا سيما في باقي الأجزاء بوصفها إحالة إلى قيمة أنثوية مؤسلبة، فلا جرم أن تتراجع سردياً، وهذا ينتج بفعل استباقي لأسلبة التكوين الأنثوي العام في النص " الذات عينها، والأم، والصديقات، ولكن ضمن نطاق قوة متعالية يعتلي قمة هرمها الأب أو"السلطة المطلقة"، ومن ثم العائلة، والمجتمع الأهلي، بتكوينه الشرقي، علاوة على الأقران من الذوات الأنثوية التي تتيح نسقا تقابلياً لتعميق هوة الاختلاف تبعاً للمرجعية الاجتماعية والثقافية، ومن ثم يأتي المجتمع الأوروبي " المستعمر"، وأخيراً العشيق " طارق " ذلك الفتى الذي يجسد المحطة الأخيرة في تكوين دائري لمعنى تأسيس فهم الذات الأنثوية للشخصية المركزية في النص، وانهيارها، أي بوصفه الحلقة الأخيرة من تدمير الذات، وهذا يأتي ولكن في ظلال الآخر، المتعدد الحضور، والمستويات، غير أن الملاحظ بأن الذات في قاع الإدراك تستعيد صورة الأب، في حين تتلاشى باقي العوامل ، مما يعمق عنف هذا المكون في تكريس الفهم الأنثوي لذاتها الإنساني والنفسي، ومن ثم الثقافي، فلا عجب إذن أن ينطوي العمل على عناوين فصول، تفضح المكنون الدلالي، فنجد فصولاً بعنوان " الأب والآخرون "، و "الأم الشابة "، والدراجة، و"لعبة المرايا"، وهي مجتمعة تشي بانكشاف الذات بحدود الرؤية الذاتية بمواجهة الآخر.

الأنثى المتماثلة – المفارِقة (نموذج مؤسلب)

تشي افتتاحية النص بمحورية عالم الطفولة المُستعاد من الذاكرة، إذ يعدّ مفتاحاً لاكتشاف الذات، فكما يقول ريكور **" الشخص بمقدار ما يتذكر "**[1]، غير أنه سرعان ما يؤكد على عامل آخر يتصل بوجود

[1] ريكور، الذات عينها كآخر، ص ٢٧٠

الجوهر أو النفس (الثبات) [1]، هذا الجوهر الذي يتشكل تبعاً لسياقات معينة، أو على نحو آخر، ونعني خاصية الأسرار المنظمة خطابياً، والتي ربما لا يمكن أن تُقرأ إلا بوعي الاستعادة، وهكذا تتخذ الكتابة في هذا المستوى فعلاً هاتكاً للمسكوت عنه، أو المهجور ، ولا سيما بعد أن تخلصت الأنا من ارتباكاته المصاحبة في أزمنة انقضت، وبذلك تتحدد بنية النص الإشكالية العالقة بين مكونين: روائي وسيري. هذا المسعى النصي يشي بالرغبة في اللعب بهدف خلق المكون الدلالي، والإحالة المرجعية للنص بين الواقع والتخييل، فثمة موقف متردد من الحسم في تحديد البنية الأجناسية للنص من منطلق التداخل القائم بين السيرة والرواية، بيد أن القاسم المشترك يتحدد بمرحلة الطفولة التي تعدّ قيمة مركزية في تحديد التوجهات المستقبلية لمسالك الشخصية، ورؤاها، فثمة أمور لا يمكن أن تكون حاسمة الدلالة، إنما هي في حالة إرجاء من منطلق الفهم التأويلي التفكيكي للأزمنة، والأحداث والشخوص، فلا عجب أن يبدأ النص بمقولة:

"ترى هل الطفولة سرخفي لا يسمع أم غبار الصمت؟ [2] "

إذ كان النص يبدأ بفصل يحمل عنوان " الأم الشابة" فإن هذا يشي بنموذج إعجاب وافتتان بالأم، وتكوينها الأنثوي العميق، ولكنه يتعرض للانتهاك نتيجة عوامل متعددة، وهذا ما يتفق تماماً مع التحليل النفسي الذي يرى بأن الفتاة في مرحلة الطفولة تتماهى مع الأم على ال رغم من إدراك الطفلة (لاحقاً) بأن الأم تقع في مرتبة أدنى مما يعمق فيما بعد حالة النرجسية، ومبدأ الندبة [3]. ومع أن بنية البحث في الخطاب السردي بتعدد مستوياته يتطلب تشريح النص، وتفكيك عناصره، علاوة على هدم بنيته الكرنولوجية، غير أن هذا النص بالتحديد لا يمكن لنا أن نتجنب تداخل المستويات في تفكيك أنساقه، فالمستويات الدلالية في بعض الأحيان تلتحم فيما بينها، بحيث يصبح من الصعوبة فصلها.

يستند حضور الأم إلى قيمة رمزية، تمتح من ذاكرة ميثولوجيه عميقة، وهي افتتاح دلالي لتتويج التكوين الأنثوي للنص، فالأم في المكون الأسطوري تعدّ قيمة متوحشة تبتلع الذكر الكامن في رحمها، وهذا يعدّ فعل عقاب يسير بموازاة الطبيعة بوصفهما عالمين متطابقين كما جاء في كتاب " الأقنعة الجنسية" [4]، ولنتأمل هذا النص للتأكيد على قوة الحضور الأنثوي:

---

[1] ريكور، المرجع السابق، ص ٢٧٠.

[2] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات.

[3] بام موريس، الأدب والنسوية، ص 156.

[4] ينظر كاميليا باليا، أقنعة جنسية؛ الفن والانحطاط من نفرتيتي إلى إميلي ديكنسون، ترجمة ربيع وهبة، ط 1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2015.، ص 36.

أحس بالافتخار، ذلك لأني أولج أمي – التي باتت عندي أجمل ا لنساء وأكثرهن إثارة للرغبة – في المدينة كلها بل العالم قاطبة، أشعر أن أولئك الذين أعجبوا بها قد شرعوا في الحكم علينا، وأنهم يترصدوننا بدافع الخشية والحذر... "[1].

غير أن هذا البعد المتقدم في النص من ناحية الرتبة السردية سرعان ما يتهاوى في غلالات الضعف التي تكسو شخصية الأم عبر التمثيلات المستمدة من بنى الذاكرة، والتي تعتمد زاوية رؤية الفتاة " فاطمة" التي تضطلع في تقديم وجهة النظر في الفعل السردي، مما يشي بتبئير أحادي، يعتمد مبدأ تأويلياً لمعنى الأنوثة التي تنتهك؛ ولهذا نجد أن تتمة النص السابق تحمل قيمة تنبئ ية لهذا المآل، حيث تصرح الفتاة بحكمها على العالم من منظور أنثوي خالص بحيث تتطابق ذاتها مع الأم، وهذا يجعل من الانتقال الذي أحدثه جاك لاكان في تطوير أفكار فرويد صالحا للتطبيق، فالأول يربط الإ دراك الذاتي للاختلاف الأنثوي بـدخول الطفل إلى النظام اللغوي، والرمزي[2]، وهذا ما نراه ماثلاً في النص عبر استخدام الضمائر التي توحّ د بين ذاتين : الطفلة والأم عبر اللجوء لاستخدام الضمير " نحن"، بالتزامن مع دخول الطفل إلى النظام اللغوي، والرمزي[3]، وهذا ما نراه ماثلاً في النص عبر استخدام الضمائر التي توحد بين ذاتين: الطفلة والأم، وبالتحديد الضمير " نحن" .

" حصل لي أن ذهبت (وإن كان ذلك قد تم بعد ذلك بكثير) إلى الاعتقاد بأن بإمكاني مواجهة هؤلاء المتلصصين – من أجلها ومن أجلنا نحن![4]

إن التأمل في بنى النص ، وتمحوراته الدلالية سيشي باعتماد مستوى لغوي يعمد إلى خلق تعابير تحتفي بالاتحاد بين الأم والابنة بوصفهما ذوات أنثوية متماثلة، وهذا يتسع ليشمل المكون الأنثوي بالمطلق، في حين أن هذا يأتي بمواجهة عالم متلصص، وهنا إحالة مضمرة إلى مجتمع ذكوري، أو ربما شرقي يتتبع المرأة؛ ولهذا لا بد من مواجهته، أضف إلى ذلك حضور مقولة الاشتهاء أو الرغبة بالا ستحواذ على الجسد الأنثوي " المستعمَر" من قبل المستعمِر، وهذا يعبر عنه من خلال رسم صورة لرغبات الرجال الأوربيين بالكشف عما وراء الحايك من جسد معزول، مقنع، بحيث أضفى الحا يك شيئا من الإثارة على جسد الأم في توجهها نحو الحمام التقليدي:

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص١٦.
[2] بام موريس، الأدب والنسوية، ص159.
[3] بام موريس، المرجع السابق، ص159.
[4] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص١٧.

" لم أتفطن إلى أن أمي تستثير إعجاب الرجال بسبب هذا الحايك الحضري، الذي يضفي عليها طيفاً أبيض ذا طيات بينة، ويجعلها مقنعة ولكنها ذات هيئة أنيقة، وأنا كما العادة متشبثة بوركها، أنا البنت الصغيرة التي لم تعد تصلح كضمانة فحسب بل أيضا كحماية، لم يعد الأمر يتعلق ن ظرات الرجال العرب، كما في حينا، بل هناك نظرات الأوربيين الجالسين في شرفات حاناتهم " [1].

الأنثى هي فاطمة أو (الفتاة التي تتحول إلى امرأة) سرعان ما تلتقط إشارات لغوية مبكرة لمعنى الاختلاف الجندري، ولكن في عالم ذكوري يلقي بآثاره على الأم الشابة . ولكن كيف تكون الأم شابة؟ وما المضمر في هذه العبارة؟ لا شك بأن الأم تمثل النموذج الأليجوري للأنوثة، وما مفردة الشابة إلا تأويل جاء من لدن الطفلة، فالأم لا بد أن تكون قياساً على الوضع الطبيعي أو المنطقي شابة، كونها أماً لطفلة . لا شك بأن منظور الشابة الجميلة الذي خلعته الصغيرة على الأم يستند إلى تفسير نفسي الأبعاد، ونعني تعالي الأم بوصفها أنثى جميلة، حيوية، فعلاقة الابنة مع الأم تستوجب نوعاً من الاتحاد، أو الاتصا ل، أو ذاك التماهي الذي أشرنا له ، وعلى ما يبدو، فإن هاجس تقدير الذات يتأتى م ن واقع الأم في الصفحات الأولى، إذ نتلمس ربط الأم الجميلة المحجوبة بالحايك، ما يحمل المنظور إلى فعل من أفعال التقنيع، للمكون الأنثوي المجسّ د بالأم التي تبدو جميلة، ولكنها محجوبة أو مستترة حيث جاء:

" لمست بيدي قماش الحايك . آه لكم أستشعر فخرا جما وأنا بجانبها! أرشدها كما يحصل لمعبود غريب: أنا ابنتها بل خادمتها أو حتى كفيلها بينما تتجه ببطء، وهي تبتعد عن بيت أمها، صوب منزل عائلي آخر" [2].

وفي موضع آخر، نقرأ:

" السائرة غارقة تحت الحرير الناصع، بحيث لا يمكن للمرء أن يرى سوى عرقوبها أو عينها السوداوين أعلى الع جار" [3].

وهكذا، فثمة الإعجاب بفتنة الجسد أو الجمال الأنثوي للأم، ولكن المحتجب أو المقنع عن الآخرين، وهنا نلمح قوة دفع سردي لقراءة الذات في ضوء هذا الحجاب والإقصاء الذي يقود " فاطمة" إلى علاقة خاصة ترتبط بأنوثتها، وتموضع جسدها، وتحديداً تقنعه " وحجبه" عن العالم، فضلاً عن ترابطه مع مكونها الإنساني الفكري المعزول، وبهذا تتحقق المفارقة، وينفصل التماهي نتيجة سلبية الأم، وضعفها، وعدم قدرتها

[1] المصدر السابق، ٩١.

[2] المصدر نفسه، ص ١٦.

[3] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص ١٥.

على مواجهة السلطات المجتمعية البطريركية، ولهذا فإنه سرعان ما تتحول الفتاة إلى وجهة الأب نزولاً عند المفاهيم اللاكانية.

الأب القانون الأبدي

بعد أن تتعرض تمثيلات الأم في الوعي الطفولي المنتج لقيمة مؤسلبة، تت جه " الشخصية- فاطمة" نحو الأب بوصفه قيمة إيجابية، ولكنها سرعان ما تكتشف بأنه ينتمي إلى "نسق سلطوي، وهنا تتحول اللغة السردية إلى توجس من هذه السلطة الأبوية حيث تنتشر في المتن السردي استحضارات الأب، ومنظوره تجاه الابنة التي تختبر في تحولاتها من طور الطفلة إلى طور الشابة (المرأة) وعياً مرتبكاً بحدود جسدها الذي يشكل لها عقدة أو قيمة إشكالية، فنقرأ في الرواية عن موقف الأب المتصلب عند رؤية ابنته الصغيرة، وهي قود دراجة الهوائية مما يتسبب بانكشاف ساقيها، كل هذا يتكون في وعي طفلة، غير أن هذا الوعي بتكوين الجسد مبكراً قد أحدث شرخاً في فهم علاقة الصغيرة بجسدها، مما يفسر الكثير من ا لمواقف المستقبلية في وعي الذات، وتحولها.

تجري ح الات تمثيل الأب في وعي الطفلة ضمن أفق ضبابي، ولا سيما في مستهل النص، ولكنه سرعان ما يتضح ليضفي على العمل مدلولات عميقة، بل إن العمل في أصله كان قائماً على العتبة النصية المجسدة بعنوان " لا مكان لي في بيت أبي "، وهذا يأتي نزولاً عند مبدأ قانون الأب الأبدي، وهذا ينقلنا إلى معاني النبذ والإقصاء. ولعل مفردة المكان في ع نوان الكتاب باللغة الفرنسية تنطوي على إحالات لفضاء جغرافي آمن (المكان في بيت الأب) ولكنه جاء مسبوقاً بحرف نفي (لا)، وهذا كي يؤكد جدلية الذات في نفيها خارج حدود مألوفها بما في ذلك الأشخاص المقربين، والأمكنة، والسياقات العامة : القريق، والمدرسة، والمدينة، والوطن، كلها تمضي نحو نمط مؤسلب يتسبب بتبديد الذات التي تفقد شيئاً فشيئا حدودها، و تشعر باغترابها عن ذاتها أولاً، وعن المحيط ثانياً، وهذا يعني شكلاً من أشكال الفقد لرمزية الدال " القضيب" المتعالي، وهو ما يعني الحرمان [1]، كون الفتاة تقرأ ذاتها بوصفها كائناً غير مكتمل، فالأب يشكل للفتاة أو للابنة شديد الحساسية القانون الذي يؤطر ابنته عبر جسدها بوصفها إحالة إلى كينونة محرمة، ناقصة، مشوهة، أو مقدسة ينبغي أن يبقى في حالة نقاء.

لا شك بأن الأب الذي تنشأ صورته بوصفه أستاذا ينتمي إلى فئة مثقفة متنورة، يبدو أقرب إلى رجل متحضر، فهو يعمل مع الفرنسيين مدرساً، كما لديه الكثير مما يتفوق به على الكثير من أهل القرية والسكان المحليين كونهم لم يحظوا بقدر كبير من تجربة التنور، بيد أن التشقق يتحقق حينما تصدم الفتاة في هذا

[1] بام موريس، الأدب والنسوية، ص 166.

الأب الذي بدا لها صورة مطابقة، لا تختلف عن المحيط، أو في عبارة أخرى، يخضع لقيم مجتمعية، و لعلها قيم قابعة في اللاوعي تتأسس هيمنة بدائية ما، وهذا ما يتصل بطريقة أو بأخرى بالمنظورات الشرقية التي تكمن في لا وعي الرجل، على الرغم من أنه ربما يكون قد امتلك تجربة وحظاً من التعلم، فضلاً عن الاختلاط بالأقوام الأقل تحفظاً كالمستعمرين، والأوربيين عامة.

"هذا الزوج متصلب وهو الذي يضطلع بدور الزوج الحامي، الابن الذي ولد فقيراً ثم أصبح يعول أمه وأخته. ودور الأب؟ إنه يتبدى في هذا الدور تحديداً . رغم أفكاره وإيمانه بالثورة الفرنسية، والم زايا البينة للتعليم له ولذويه، رغم هذه المنزلة بوصفه أبا – إزاء ابنته الأولى- يصبح ثانية، رغما عنه أو دون علمه. " حارس الحريم" [1].

تشير الجملة الأخيرة من النص السابق إلى سلوك الأب على الأم الشابة الجميلة، ولكن السلبية الخاضعة، ولكن هذا يتضح بصورة أعمق عبر حادثة الدراجة التي سوف تبقى ندبة في ذاكرة الفتاة الصغيرة، فهي تدرك بأنها واقعة ضمن نسيج ثقافي بات شديد التعقيد، فهو يتألف من ناحية الأب والمحيط الاجتماعي على نحو مركب ومعقّد، وشديد التنظيم . فركوب الدراجة قد شكل إدراكاً لمعنى الجسد، ولكن من منظور الأب، أي بوصف الجسد علامة ينبغي محوها، أو إخفاءها، وهذا ما شكل فيما بعد دالة سردية تتصل بحدث محاولة الانتحار ، وتحديداً بعد الصدمة التي تحققت نتيجة تصرف " طارق" الشاب الذي أحبته، وبهذا تستفرد حادثة الدراجة بفصل كامل.

مما لا شك فيه بأن حادثة الدراجة قد شكلت صورة مبكرة للأب، وقلق تكوينه في الوعي، ولكن يتعالق مع صورة أخرى للأب الذي يتواجه مع الآخر الفرنسي، والإشارة هنا إلى المشاجرة التي نشبت بين الأب "المدرس" وولي الأمر الفرنسي، فالأب ظهر متعجرفاً تجاه الآخر الفرنسي ، والحريص على بيان النموذج التركي، وإبرازه في الملبس والتعامل ، وهكذا فقد بدا الأب في متخيل الطفلة شخصاً قوياً، فهو نموذج للتطور على الطريقة التركية، غير أن الأب الذي قاوم الغرور الفرنسي بجرأة نتيجة تملكه القدرة على التخاطب بالفرنسية بإتقان بدا كأنه نموذج إيجابي، ولكنه ما لبث أن شرع يتآكل، أو يتضاءل نتيجة الصور السلطوية للأب كما في حادثة الدراجة، ونظرته للجسد الأنثوي؛ مما أحدث اختلالاً في التمثيل، بالإضافة إلى سلسة من الاختلالات الأخرى التي صاغت مفهوم الذات عبر علاقتها مع الآخر (غير الأب)، وهكذا فقد أضحى هناك جدار بين الطفلة والأب، مما أدخل الذات في نمط من القلق، وفقدان بعض من خصائص الاطمئنان، وللتثبت من ذلك نقرأ صورة الأب كما انعكست في وعي الطفلة ضمن إطار خارجي:

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص٤٩٥-٤٩٦.

" كان أبي رجلاً شاباً، طويلاً جدا، ذا كتفين عريضين وعينين خضراوين- زرقاوين كأبيه، أو ربما كعيني هذه الجدة (من أمه) التي لم أتعرف إليها"[1].

ومن ثم نلاحظ كيف أن الصورة المثالية للأب قد أعطبت نتيجة حادثة الدراجة كما يكشف النص:

" ثمة مشهد حصل في فناء العمارة الخاصة بالمدرسين ظل عالقاً في ذهني كحرقة، وهو بمثابة لوثة في صورة الأب المثالية، أخذت أشيدها رغما عني، لأنه غائب غياباً مبرماً" [2].

ولعل الصورة المثالية للأب تبدو امتداداً للخراب الذي طال نموذجية الأم الجميلة، ولكن المسيطر عليها من حيث ضعفها، وقلة حيلتها. وبينما تتعلم الفتاة الصغيرة ركوب الدراجة بمساعدة شاب من الجيران، إذ يصل الأب، فتدير الفتاة العجلة تجاه الأب معتقدة بأنه سيكون فرحاً بمشاهدتها، وهي تقود الدراجة، ولكن الأب سرعان ما يتظاهر بتجاهلها، ومن ثم يقوم بمناداتها، تمهيداً للصراخ في وجهها داخل المنزل:

" لا أريد، كلا لا أريد – كررها عالياً لأمي التي هرعت صامتة هي الأخرى- لا أريد أن تظهر ابنتي ساقيها وهي تركب الدراجة"[3].

لا شك بأن سطح المفردات في النص السابق يحتفي ببعض المؤشرات التي تحيل إلى أفعال الطمس أو المحو للذات، فالجسد بات قيمة مرفوضة، وشيئاً ينبغي أن يبقى في مستوى اللامرئي، محجوب، وهذا يتآزر بصمت الأم، وتواطئها تجاه دالة الجسد "ساقيها":

" أخالني قلت لنفسي لأول مرة : " هل أبي لا يزال هو أبي؟ ربما أصبح فجأة شخصاً آخر؟ " لم أحتفظ من جملته النابضة، مثل سهم نحاسي يتردد صداه بيننا، إلا بهذا اللفظ العربي؟ " ساقيها"[4].

كلمة "ساقيها" بدت اختزالاً للوجود الأنثوي بالكلية، علاوة على كونه قد ارتبط بقيمة مؤسلبة أخرى، ونعني كون هذه الكلمة قد وردت في حديث الأب باللغة العربية، ما خلّف هوة، وفعلاً من أفعال التلازم بين ثلاثة عناصر بدت شروخاً في الذات، ونعني الاقتران بين اللغة العربية والجسد، أضف إلى الوالدين: الأب، الأم الصامتة.

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات ص 54.

[2] المصدر السابق، ص 60.

[3] المصدر نفسه، ص 63.

[4] المصدر نفسه، ص 63.

هذه الحادثة انطوت على تساؤلات عميقة طالت أسئلة التحول في شخص الأب، والحيرة تجاه صمت الأم، وعدم قدرتها على الاحتجاج والأنكى من ذلك أنها لم تعي صدمة الفتاة [1]، ليتعمّق الشرخ في الذات الصغيرة، فلا جرم أن تنعته بالجرح الوحيد الذي تسبب به الأب [2].

في سن الخامسة يكون الإعجاب بالأب تبعاً لمنطق التحليل النفسي ، غير أن التحول بدأت بوادره بتمثيل لغوي تمكن من تحديد الاختلاف والنقص كما بيّ ن جاك لاكان [3]، فبعد أن اعتقدت الطفلة بأن كلا الوالدين مثاليين، غير أن الجسد الأنثوي للطفلة ، وسلبية الأم، قد أعطبا هذا النموذج، بل ترك ندوباً على الذات حتى أنها نعتت بوشم [4]. هذا الحدث سوف يتسبب بعد ستة عشر عاماً بسلوك انتقامي، ولا سيما بعد أن تدرك الفتاة بأن الجسد في البيت والمدرسة الداخلية ، يعني موضوعاً مغلقاً، إنه حريم، ولهذا تشرع ببناء علاقة مع شاب بحيث يقضيان الوقت بالتحدث، والتنزه.

تبقى متتاليات الجدران قائمة تحول دون التواصل بين الابنة والأب ، وهذا مما يعمق الفجوة بين هذين التكوينين الذاتيين، ولا سيما في سياق المجتمع حيث ينفي الأب الابنة من حدود عالمه، وهكذا يجعلها تستشعر اختلافها - ربما الجندري القائم على الجسد ، والفكرة- وهذا يتضافو مع سياق اجتماعي يحاصر الأنثى، ولا سيما حين تعيد تذكر مشهد وصولها من المدرسة بالحافلة ، وما كان من تجنب الأب لفتاته الصغيرة عندما حاولت الارتماء بحضنه . هذا التواصل الجسدي المبتور سيؤدي في مواضع أخرى إلى توتر التعريف الجسدي للأنثى، بوصفه إحالة إلى محرم، أو فعل من أفعال النبذ والإقصاء، فهو استجابة لتمثيلات الجسد في الثقافة الشرقية، فالأب يخضع عالمه ل تنظيم شديد ، بما في ذلك النظام المنزلي، فالكل ينبغي أن يراقب حركاته، غير أن الفتاة تستشعر حضورها الخارجي حريتها بوصف مظهرها يقترب من فتاة أوروبية تعشق الموسيقى، والكتب، ولكن واقعها، وعمقها الداخلي يخضع لتنظيم شرقي آخر حيث تقول:

"في سن إحدى عشرة سنة، فاثنتي عشرة سنة، يتعين علي في الخراج أمام الملأ – أي جميع الفرنسيين ككتلة واحدة " وذوي"، أولاد ورجال فحسب- فصيلة الذكور مجتمعة – أبدو حينئذ، ومن الوهلة الأولى، كاستثناء، أنا صاحبة المظهر الأوربي دون أن أكون كذلك أن ألجم حركاتي حتى وإن كان الشارع خاليا بالمصادفة"[5].

---

[1] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 64.

[2] ينظر المصدر السابق، ص 66.

[3] ينظر بام موريس، الأدب والنسوية، ص 165.

[4] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 66.

[5] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 150.

يبقى تواصل الأب مع ابنته محدود اً، فالأب يقي نفسه بدرع[1]، وهذا يتعمق في سن المراهقة، و تحديداً عندما تهمّ الفتاة باختيار فستان كي ترتديه في أحد الأعراس ستكتشف حينها بأنها قد أضحت فتاة شابة، وبأن جسدها بات جزءاً من المشكلة، وبوجه خاص عندنا تمارس الأم رقابة، على الجسد الذي بدا يانعاً ، ولهذا فلا بد أن يتعرض للمراقبة من قبل العائلة، والمجتمع، ولا سيما حين يكون تختار الفتاة فستانا عاري الكتفين، وبينما تتقبل الأم هذا الأمر على مضض، غير أنها تضع شرطاً، يتمثل بأن تحتفظ " فاطمة" بقميص فضفاض، ولا سيما حين تخرج للشارع خوفاً من غضب الأب:

أعدك يا ما: لن أظهر أمام أبي عارية الكتفين بهذا الفستان! لن يرى شيئا![2]"

هذا الحصار ينتج نوعا من الحلم، وسيلة الخلاص من الرقابة العليا، فترى الفتاة نفسها نائمة عارية بين أغطية السرير، ترقص أما م عيون النساء المسنات والرجال والحيوانات [3]، إنها رغبة بتحرير الجسم من الرقابة، أو من أفعال التلصص، و من هذا التكميه للحضور الأنثوي المختزل إلى جسد فحسب، وبهذا نجد تمحوراً في المتن السردي حول علاقة الفتاة بجسدها الذي سرعان ما يجد مخرجه بالرقص[4]، وبهذا تصطنع الشخصية لذاتها معبراً للخروج من الحصار المجتمعي والعائلي، مما يعيد توازنها، أو تصالحها مع جسدها الذي ترى فيه علامة مؤسلبة صنعتها سياقات متعددة.

إن مفهوم لاكان حول النزعة القائمة على إدراك الذات عبر المرأة يبدو طاغياً على تحليل النص، فهو يمثل إحالة سافرة للكشف عن مكنونات فهم الذات، واختلا فها، فالفتاة عندما تتحول إلى امرأة ناضجة تعيد قراءة هذا القلق بنسق استرجاعي ، حيث تعبر عن ضيقها من محدودية وجودها، واختناقها منه في مرحلة الشباب، أو المراهقة، غير أن إدراكها لذاتها حينها، يبدو قلقا ومعطوباً، بطريقة ما، فالرقص ي أتي تعبيراً عن محاولة تبديد هذه الانعكاسات في المرايا، ولكنها تبقى أسيرتها أو تجاه تحديد ذاتها القلقة:

" أجل أتذكر: عندما كنت مراهقة، كنت في رقصتي المنفردة (وقد كنت أعتقد في ذلك الزمن، أن أسراري الصغيرة كانت ثقيلة جدا) أرتمي في الإيقاع راقصة حتى أتخيل بأن السرعة قد خنقتني، ثم وقد التصق وجهي بإحدى المرايا أراني أبكي، وجهي مسطح ومشوه في قصدير المرايا الكبرى الت ي كانت تهرني عندما كنت طفلة صغيرة" [5].

---

[1] المصدر السابق، ص151

[2] المصدر نفسه، ص248.

[3] المصدر نفسه، ص 247.

[4] ينظر المصدر نفسه، ص 256.

[5] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 257.

تبقى صورة الأب حاضرة، فهو يمثل نموذجا لمصادرة القيمة الأنثوية التي انطلقت من الجسد الذي دخل في مرحلة النضج، ولا سيما في المدرسة الداخلية، وحينها تبدأ في استدعاء صورة الأب عند البدء بمراسلة الشاب طارق، وما حمله هذا الفعل من قلق، وخوف، غير أنها لجأت إلى الحيل كي تستثمر ع لاقتها في تتويج وجودها الأنثوي ، ولكن مع سيطرة لا شعورية بعقدة الأب، واستحضار فكرة النبذ، مع أن " فكرة" العشيق أو الخطيب كما تطلق عليه، قد فتح لها أبوابلًا غير مرئية من العالم الخارجي، فهذا العشيق لا يحضر بوصفه جنساً ذكورياً ، إنما هو دلالة أو " فكرة " للتمرد، ولهذا فإن القبل ستتخذ وضعية رمزية ، فهي تأوّلها لا من منطق الفهم الذكوري ، واتصالها برغباته فحسب، إنما ترى فيها شكلاً من أشكال التحرر، والاتحاد مع العالم، وهذا ربما يتفق مع ال ترميز اللغوي في التع بير عن الرغبة بخرق المحرمات بحثاً عن التحرر، كما في رواية فرجينيا وولف التي تشير إلى رغبة الفتى - إحدى شخصياتها- بالذهاب إلى الفنار على أنه رغبة محرمة نتيجة رفض الأب لهذا الفعل[1].

إن صراعاً ما ينبعث في الرغبة لتحرير الجسد الروح بوصفها علامات على هوية ثابتة، ولكن مع الأب الذي يشكل جداراً معنوياً، فنشأتها التي خضعت لتدخل الأب تجعل منها حالة سلبية كما تكمن في المتخيل أو اللاوعي، فالأب لن يتمكن من فهم علاقتها بهذا الخطيب، وبذلك فإنها ستخجل من نفسها، وستشعر بأنها منبوذة، وهكذا فلن يكون لها من مكان في بيت أبيها [2] .

تتضاعف حالة اكتناه الذات في منظور الأب حين تغرق في حوار داخلي يتمركز حول انكشاف أمرها أثناء تسكعها مع الخطيب ، وبوجه خاص من خلال أحد معارف والدها ، فتنبثق فكرة الانتحار خوفا من انكشاف عدم نقائها أمام الأب:

" إن علم بذلك أبي سأنتحر" [3].

ومن ثم تع اود لاستكمال رسم صورة ا لمواجهة بين الأب والابنة، مع ضغط فكرة مهيمنة تتصل بجدلية الجسد ، ومعنى المدنس والمقدس، إذ تستدعي متخيلاً، وذاكرة لطالما لبثت في عمق العقل الشرقي ، وتتحدد في موقفه من الجسد الأنثوي بوصفه قيمة سلبية.

" إن استدعاني أبي للامتثال أمام محكمته فلن أعاود الظهور ! كيف أخبره بأن جسدي بكر (هوس مجتمعنا منذ قرون) – وبأني لم أقبل إلا القبلات (التي لم تؤثر فيّ، ولكن الخرق والحظر أثرا في أيما تأثير !)

---

[1] بام موريس، الأدب والنسوية، ص 167.

[2] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 476.

[3] المصدر نفسه، ص 482.

كيف أجرؤ حتى على التقدم في هذا الميدان المحظور من قبل العف ة أمام الأب؟ وفي كل مرة تأتي خلاصة لتختم المعضلة:

"إن استدعيت للامتثال أمام محكمة الأب سأنتحر " [1].

ثمة في لاوعي الشخصية خوف كامن نتيجة تمثل وعي شرقي تجسد في سياقات الأب والمجتمع، فالخوف من محورية النقاء الجسدي، أي معنى العذرية في متخيل الأب تجاه ابنته، ولا سيما عند اشتداد المراهقة، وما يطرأ من رغبات بالحرية والتي تعدّ قائمة ومشروعة . لا شك بأن هذه الحرية تبدو عصية على التكوين، فهي ليست جزءاً من ثقافة مجتمع خاضع لاستعمار، ولكنه خاضع أيضا لتراتبية طبقية وسيا سية واجتماعية داخلية حيث تتراجع الأنثى في مجتمعها، كما تفقد الكثير من حقوقها، فالحب يشكل معضلة كونه ربما يقود إلى شكوك حول عذرية الجسد، وهذا توجه مشترك بين العقول الذكورية التي ترى في العلاقة بين شاب وفتاة إلا بوصفه مصدراً لافتقاد عنصر النقاء، وشيئا يدنس الجسد الأنثوي:

"ولكن ما إن أصبحت مراهقة؟ ستواصل ا لبحث عن ارتياد الفضاء الحروالتحول وتوسيع الأفق . حينئذ لم يتسن لهذا القيام بذلك إلا بعيدا عن أنظارالأب . أتخشى حكمه؟ لا ! بل بالأحرى الشكوك التي قد تعتريه حول نزاهتها وعذريتها" [2].

لا ريب بأن الرغبة في الخروج إلى البحر، والتسكع في شوارع المدينة قد مثلت هاجساً سائداً في بنية الحدث السردي، فهذا الفعل يخلق المزاج الحر نتيجة الرحلات التي تقوم بها مع العشيق، فثمة خفة، وتحرر، وهنا تسعى الفتاة للتخلص من الهيمنة الذكورية التي تدعي معرفة الحقيقة والعقلانية كما بين بام موريس [3]، هذا الادعاء يجسده الأب، فلا جرم أن تخرق فاطمة هذا القانون عبر عدد من الممارسات:

لقد أتت محاولة الانتحار على "التراموي" باعتبارها جزءاً من محاولة ا لتطهير، وإفناء الذات لصالح الأب الذي شكل معضلة أو نوعاً من التشظي والارتباك لمفاهيم ما فتئت تتداخل وتتشابك نتيجة عوامل استعمارية وحضارية وثقافية، فعلى الرغم من كافة العناصر التي تشي بنموذجية الأب الظاهرية بوصفها زوجا محباً، ورجلاً عصامياً، غير أن ثمة نوعاً من الإعجاب بالأب لكونه يعني شكلاً من أشكال الحماية، ولكن ثمة خشية من الحصار الذي يتزامن مع تشقق الوجود الأبوي بتمظهره الإنساني والثقافي نتيجة تشظيه بين ثقافتين: ثقافته المكتسبة من الفرنسية ، وعمقه الشرقي، وبذلك فثمة تشقق بين الذات التي تنفصل إلى

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص482.

[2] المصدر السابق، ص ٤٩٦.

[3] بام موريس، الأدب والنسوية، 167.

ذاتين، وبناء عليه لا يتحقق الثبات الذي أشار له ريكور ب احثاً عن تكوين مفهوم الذات مما يعمق حضور الهوية السردية التي تكتسبها شخصيات هذا العمل، ولا سيما فاطمة.

يرتبط حضور الأب القلق في ذاكرة الطفلة حين تقارب تمثيل والدها الذي يتحرك بين عالمين ثقافين، أو لنقل بين شخصيتين نتيجة الأثر الاستعماري، وهذا يتسم بتعدد الطبقات في النسق المسلكي بين الأب وابنته، وهو ما يمكن أن نجعله في مستويين: الأول التعامل مع الابنة بوصفها ابنة (طفلة)، ومن ثم إدراك بأن هذه الطفلة لم تعد صغيرة إنما أضحت امرأة، والثاني يتمثل بالانتقال اللغوي بين الفرنسية والعربية تبعاً للموقف، وفي هذا المستوى، نجد أن الطفلة تلجأ إلى تحليل هذا الاضطراب الأبوي في نسق التواصل مع الأنا سواء أكانت طفلة، أو امرأة، بل إنه هذا يتضح عبر القناة اللغوية التي تعكس اضطراب الأب، وتشتته بين عالمين، عالم المستعمِر، وعالم المستعمَر، فالأول يعني وجهاً لا يعكس حقيقة الروح الكامنة في عمق رجل شرقي، غير أنه يحتاج إلى هذه القناع بوصفه أداة تتيح له الوجود في عالم محكوم بهيمنة القوي، والاستلاب؛ ولهذا يلجأ إلى الفرنسية حين يرغب في أن يكون ضمن نطاق القوة، أو في عمق التأثير الكولونيالي اللغوي، وهذا ما ينقلنا مرة أخرى إلى الاضطراب الذي يسكن الذات في تكوينها الثابت، أو الهوية كما بين ا سابقاً عند تناول ريكور لهذا المفهوم، فالفتاة تكون منظورها لهذا الأب في ضوء وعيها، وهنا نضطر إلى الاستشهاد بمقطعين يفصّلان لنا هذه الإشكالية من وجهة نظر سردية تضطلع بها الفتاة حيث جاء في النص:

أترين يا ابنتي ...

لا شك بأنك تذكرت بغت عمري وشرعت بلهجة أبوية، ولكن فيما بعد كأنك كنت تتوجه إلى امرأة. أحس بهذه الجدِة – لو أنها اختلال للتوازن واستباق" [1].

وفي الصفحة عينها تقول:

" عشية الدخول المدرسي، قلت إذن لابنتك ذات الأربع أو الخمس سنوات (بدت لك قد كبرت، وأنا كذلك بالقدر الكافي الذي يجعلني أدرك وأنا في مواجهة نفسي ولا شك لأنه لا يمكنك التحدث إلي، الآن بالفرنسية فأنت تكشف عن ذاتك – آه جزئياً. ذلك أن الحديث بالعربية، هذه العربية التي تجعلك تتلعثم حين يعتريك التأثر لا تجدي نفعا ...) " [2].

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 96.

[2] المصدر نفسه ص 96.

تظهر اللغة الفرنسية بوصفها مصدر قوة، غنيمة من المستعمر [1]، أو كما شاع في الأدبيات ما بعد الكولونيالية، لقد كانت اللغة سبباً من أسباب قبول الأب حين جاء خاطباً من قبل عائلة الأم النبيلة، فهذه اللغة توفر مستقبلا آمناً [2]، وهنا نقرأ تثمينا للربط بين الأب واللغة والفضاء الكولونيالي القوي.

لا شك بأنه على مستوى اللغة، تبدو العلاقة جلية في بناء وضع تناظري بين الأب والنموذج المثالي، فالأب القائم بين لغتين، أو ذاك الذي يضطرب أمام ابنته عند الحديث بعربية لا تسعفه . إن نبرة الكتابة تحيل إلى قيمة متأزمة بين الفتاة والأب، وهذا ما يجعل علاقتها مرتهنة طوا ل العمل بسلطة الأب، وعوالمه التي لم تتمكن الفتاة من إدراك تداعياتها، وآثارها إلا بعد زمن، وبوجه خاص حين أدركت أن حدود عالمها أكثر اتساعا من عالم محدود قوامه مجتمع، وعائلة، وقرية مستعمرة، وسادة مستعمرين.

الفضاء المؤسلب (الآخرون)

يشكل الآخر جزءاً واضحا ومتعدد المستويات من خطاب هذه الذات التي تعتقد أنها قد صاغ جزءا من فهمها لذاتها، والآخر متعدد، فهناك " الآخر العربي، والأمازيغي، والمسلم، والمستعمر" وهنا نرى طبقات كاملة من الدلالات التي تطفو على نسق البناء مع الآخر، بما في ذلك الجزء القريب من العائلة ممثلا بالجدة، والأقارب، وتكويناتهم الثقافية من حيث تمثيل المرأة، كما يأتي في حفلات الأعراس، وتموضع المرأة في وعي هذه المجاميع التي تمتلك قدراً كبيراً من فلسفة المقبول والمرفوض، ولا سيما حين يتعلق الأمر بالحضور الأنثوي غير المكتمل، وهنا ينبغي استدعاء الذاكرة الأنثوية الطفولية للذات الساردة في متن النص، ولكننا في هذه الجزئية، نستهدف فهم الآخر بوصفه الاجتماعي، ومن ثم نعمل على ربطه بالفضاء الثقافي والدلالي الذي يتكون شيئا فشيئا، تبعاً لتقاطعات الدور لا تبعاً لمفهوم بروب والمنظور الألسني للشخصية فحسب- فهذه الذوات ليست أدواراً اجتماعية تستهدف خلق صورة متكاملة لأحداث - إنما هي تعكس فهماً حقيقياً للإشكالية العميقة أو تلك الأنساق التي تؤطر الذات في تموضعها الثقافي والاجتماعي في هذه البيئة، كما تحدد أيضاً الأدوار الأخرى لهذه الذوات السردية من خلال مكونين أساسيين : هما الأقران من الإناث ، ومن ثم الأقران من الجنس المخالف، الأول يحلنا إلى الصديقات اللواتي يتواجدان في فضاء شديد الأهمية، ونعني

[1] للاستزادة حول هذا الموضوع ينظر: رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة؛ خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣، ص٨٩-١٠٥.

[2] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 121.

المدرسة الداخلية التي تشكل فضاء استعمارياً، يخضع لتنظيم معين، كما أنه يعكس حالة صغرى للوطن الذي يخضع لمتعالية اجتماعية وطبقية ولغوية، تنطوي على الكثير من التباين القائم على نسق مقارن.

المؤسسة الكولونيالية ...

في انتقال الذات الساردة إلى المدرسة بوصفها مؤسسة كولونيالية ، تتراجع سردياً أ دوار الأب، كما حضور الأم، والأسرة، لتتحول إلى الذات " فاطمة"، ووعيها الجديد، ولكن في تكوينها نحو إقامة حالة من التقابل مع الأقران، أي الصديقات اللواتي يخضعن لمؤسسة كولونيالية، وأعني المدرسة. فثمة صديقات متمثلات بالسن، وثمة من هن أكبر، غير أنهن ينتمين إلى مرجعيات ربما متباينة، من ناحية اللغة، والدين، والعرق، فضلاً عن المرجعية العائلية ال تي ترتبط ارتباطاً وثيقا بالتكوين الثقافي لأسرة كل فتاة، وهنا تسعى الذات الساردة إلى تكوين هويتها الخاصة ، والتي تتحدد بشخصية مميزة، إذ تجد اختلافها عبر اكتشاف عالم الكتب الذي يضيف لها بعداً جديداً، فضلاً عن نزعة لتقدير وحدتها، وتثمينها، ولكنها مع ذلك لا تحول دون تواصلها مع الآخر، ولا سيما الصديقات، ولعل تلك العلاقة مع إحدى الصديقات سوف ت شكل في مرحلة لاحقة دوراً وظيفيا أو سردياً على مستوى الحبكة، بحيث تؤدي هذه الصديقة إلى فصل ذات فاطمة عن وعيها، مما يقودها إلى فعل الانتحار، مما يعني بأن الأقران ، باتت قيما مؤسلبة في الوعي، وبهذا نرى أن ثمة تشققاً في وعي الفتاة، كونها تقيم في واقع شديد القلق والاضطراب.

يلاحظ بأن فضاء المدرسة يتيح تداخلاً على مستوى القيم الثقافية المتصلة بالذات الصغرى الفتاة " الأنثى" الساعية إلى التحرر ، والذات الكبرى أي الهوية الجمعية التي ت نتمي إليها أي بوصفها فتاة مسلمة عربية، وبين هذين المكونين تنبثق تساؤلات تحملنا إليها تأملات السرد السيري الذي تضطلع به فتاة مراهقة ، تنشغل بإدراك عالمين: داخلي، وخارجي ، ولطالما كانت الحدود بين العالمين شديدة الوهن، والضعف، ففي بعض الأحيان يتداخلان، أو ربما يمتزجان معاً، وفي أحيان كثيرة يتقاطعان.

من ملامح تشقق الذات، وتغايرها، إشكالية التعلم بلغة غير اللغة الأم، ونعني اللغة الفرنسية التي شكلت عالما صادما كون الفتاة لم تعتد أن تتلقى الشعر الفرنسي بنمط مهيب، وهي المعتادة على تلقي آيات القرآن الكريم [1]. في المدرسة التي سرعان ما يلاحظ انتشار قيم الاختلاف، تبعاً للغة، والاسم، والملامح، والوجه، وحتى الماضي المتوتر بين مستعمِر، ومستعمَر. تتلقى الفتاة اللغة الفرنسية بسحرها، فيتحول هذا القدر الجديد شكلاً من أشكال الانحراف عن الماضي الذي كانت فيه تصدح أصوات ترتل القرآن الكريم [2].

[1] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 132.

[2] ينظر المصدر نفسه، ص 134.

ولعل هذا الانحراف يمثل جزءاً من الانشقاق عن القيم المستقرة في وعي الطفلة التي تنزاح عن عالمها . ففي هذا الفضاء الجديد ثمة ما يدفع إلى إشكاليات عمي قة في فهم الذات، وربما تشظيها، بالتجاور مع محاولة التمترس خلف بعض القيم من خلال النزوع إلى تقديس بعضها، ومن ذلك اللغة العربية، وهذا ينسحب على معنى الاختلاف عن الزميلات بالشكل، وحتى الاسم " فاطمة" الذي يعني قيمة مبجلة من وجهة نظر ذويها، وعائلتها [1]، ولكنه هنا لا يتمتع بهذا القدر من التبجيل، ولهذا تضطرب الذات، وتشعر بتمزقها بين مكونين:

" أصبت بتأثر جم لما أدركت أن الجمال واحد ومتعدد، وبأن الآية القرآنية لها سجعها و ... وأنا أستمع، أشعر بأني في القسم وخارجه في الآن نفسه، كشيء قد أخذ في الاتساع وتمزق وكبر "[2].

إن رفض المدرسة جلب معلمة لغة عربية لتدريس فاطمة كونها تعدّ الوحيدة التي فضلت أن تأخذ هذه اللغة بوصفها لغة ثانية، ذلك يعني بأن اللغة العربية قد باتت منزوعة عنها، مما يعني بأ ن الذات التي تكونت في وضعها الطفولي، قد باتت الآن في وضع مؤسلب، ولهذا يفرض عليها دراسة اللغة الإنجليزية بوصفها لغة ثانية، وهنا تنفصل عن قريناتها، اللواتي لا يتعرضن لهذه الأ سلبة اللغوية، فهي تتمنى أن تدرس لغة أمها وأجدادها، بما في ذلك الشعر العربي القديم، ولكن هذا لن يت حقق في هذا الفضاء الكولونيالي، كما الشديد الخصوصية، والتنظيم في قيمه وتكويناته، حيث يقصي العربية الأدبية، مما يعني ليس ثمة ل غة عربية للأهالي[3] .

لقد مثلت المدرسة تجربة جديدة بما تنطوي عليه من إضافات إنسانية بما في ذلك المعرفي والجمالي، بما في ذلك أجواء الموسيقى التي تتسم بطابع أوروبي، معزوفات البيانو التي تعمق قيمة جديدة في تغريب الذات ووعيها، حيث تقترب من جمالية ما تكمن في هذا الأوربي المختلف، وهذا يتضح من خلال الإشارة إلى عوامل أخرى ، ومنها على سبيل المثال التنميط والتنصيف بين الفرنسيات أو الأهليات " أي الفتيات المحليات"، ففاطمة كانت ترفض أن تُصنف، أو تُحسب على كلا الطرفين، سواء أكان الطالبات المتحدثات بالفرنسية، أو بالعربية، و لهذا كانت إلى حد ما غير اجتماعية، وهذا مما يعني أن الذات تعاني من تكوينها بوصفها لا منتمية، وهذا يعني تمزيق الذات والبحث عن تصور جديد، ولعله يعني بلْن الصفات الذاتية أو الثابتة في تكوين الهوية قد باتت في موضع قلق، ولكن ثمة أمراً واحداً كان يشعرها بالارتياح ، ويتمثل بقدرتها

[1] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 134.
[2] المصدر السابق، ص 134.
[3] ينظر المصدر نفسه، ص 163.

على أن تذهب لزيارة والديها كل يوم سبت ، ولمدة يومين[1]، مما يعني بأن ثمة عودة إلى الحاضنة الثقافية المحلية، غير أنها تقترب من الفتيات الأوربيات اللواتي يقضين أيام الأحاد مع أسرهن، فلا جرم أن يختلط عالمها بين مكونين عرقي، بالإضافة إلى نموذج حيا تي ثقافي مختلط، وبوجه خاص من حيث الو عي بالقيم الغربية كالأدب والموسيقى بوصفها قيماً جمالية عليا ، ولكن كل هذا يأتي في جو منقسم وشديد الثنائية كما في المدرسة، مع حضور الأثر الاستعماري، وتداعياته السلبية.

" كنت أعتبر محظوظة، بينما مع أوروبيات قريتي اللواتي كن مثلي يقضين أيام الأحد مع أسرهن كانت اختلافاتنا تزداد اتساعاً.

ومع ذلك، في هذا العالم المنقسم إلى جزأين، أكثر مما هو عليه مجتمع الخارج"[2].

تشكل المجموعات المختلفة أكان العربي المسلم، أو البربري أو الأور بي شكلاً من أشكال إدراك الاختلاف، وتراجع مدى الحرية، فضلاً عن إحساس بموقع تراتبي ثقافي، وهذا يمكن أن نس تخلصه من واقع اللغة التي ما تبرح تذكر مفردات المستعمرين، ومنها الحي المستعمر، والمستعمرون، والفتاة الفرنسية، ونحن، وهم، وبما في ذلك مرادفات دلالية تتصل بـانفتاح فضاء المستعمر، وقوته ، وهيمنته على ما عداه، ولكن ثمة في المقابل حسد استعماري كامن في لا وعي المستعمَ ر، ويتمثل بحقده على الآخر، من منطلق أن فضاءات المستعمِر، وعوالمه تبدو أكثر تنظيما وجمالاً، ولعلها أكثر تقديراً، كما أن الفتيات الأوربيات يتمتعن بقدر كبير من الحرية في التعاطي مع الجسد، وفهمه على أنه ينتمي إلى فضاء خاص وفردي ، ولا سيما بحضرة الآخر أي الذكر، فالفتاة فاطمة لا تمتلك هامشاً من الحرية كالذي تتمتع به الفتيات الأوربيات في المدرسة الداخلية، فهناك عدة نماذج تحيل إلي ها الكاتبة، ومن ذلك الفتاة المحلية التي تعيش شيئا من الفصام بين ذاتها المقهورة، وبين رغبتها بالانعتاق والتحرر من هيمنة المجتمع الذكور ي الذي يفرض عليها ارتداء الحايك الذي يشكل مساحة من الخطاب السردي بوصفه علامة على المستعمَ ر، أو الذات التي تعاني من عقدة نقص أمام التحرر الأوروبي. لا شك بأن مفردات الحسد والنقص تعدّ مفردات كامنة في الخطاب ما بعد الكولونيالي حيث يعد فرانز فانون أول من أشار لها حين درس الفضاءات الواقعة بين المستعمر والمستعمر [3]، وهذا ما نكاد نراه بوضوح في هذا العمل الذي يتبنى خطابا يتصل بنموذج لا و عي نفسي مما يجعل من الذات مدركة لاختلافها في حدود الآخر.

---

[1] ينظر المصدر نفسه، ص 168.

[2] المصدر نفسه، ص 169.

[3] ينظر فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، ص ٢١. نسخة الكترونية: http://al-taleaa.net

وهنا نقف على إشارة تبدو شديدة الأهمية من حيث تقدير قيمة الحسد من قبل المستعمَ ر على المستعمِر حيث تبرز فاطمة تذمرها من الفتيات العربيات اللائي كن يغبطن هندام الأوروبيات حيث لم يكن يحسن إخفاء زينتهن تحت مئزرهن الأزرق النظامي، مما كان يستجلب غيرة الفتيات المسلمات [1]، وهنا يبرز الحايك بوصفه رمزية لمصادرة فضاء طبيعي لتحديد منظور الجسد بوصفه حالة تمتلك خصوصيتها ، كونها تنتمي إلى وعي الذات، لا وعي يحاول أسلبته عبر نبذه، وطمسه، وهذا شكل نموذجاً لتفسخ الذات الأنثوية في وسط ثقافي لا يعاني من إشكالية الجسد حيث يمتلكن الأوربيات القدرة على البوح بغراميات، ولعل هذا الفصل بين الجسد، والعالم شكل معضلة من خلال تصوير صديقة أو فتاة من الأ قران ونعني رفيدة التي خضعت لمنطق الحايك عند التعامل مع عالمها الخارجي (خارج المدرسة)، في حين كانت تبدو أكثر تحرراً حينما كانت تقع الفضاء الكولونيالي الممثل بالمدرسة الداخلية، ولهذ ا بات مئزر المدرسة يحمل مفهوما مزدوجاً، فهو بمثابة حرية للفتاة المسلمة كي تتخلص من الحايك، في حين أنه شكل للأوربية ظلاً ثقيل الظل، وهذا يتزامن مع قراءة مستقبل هؤلاء الفتيات المحليات من حيث هيمنة العائلة من خلال إجبارهن على الزواج، أو قدرتهن على إتمام لتعلمهن، فضلاً عن فضاءات الرقابة والخوف عند الخروج والمشي في المدينة.

وهنا تبرز الملامح الخارجية لون الشعر، ومعنى ذلك التماثل الذي انطوت عليه خطابات ما بعد الكولونيالية، وهذا يرتهن إلى قيمة تراتبية، تنهض على ثنائية الغالب والمغلوب، ولهذا تبرز نزعة لا وا عية بالرغبة بالتماهي مع الغالب حسب توصيف ابن خلدون الشائع ، ولكنها هنا تبقى شكلاً من أشكال الحسد تجاه المتعالي الأوربي وممثلا بالجسد تحديداً، وهذا يتضح في شكل من أشكال التمثيل للأقران من الصديقات اللواتي يدرسن في المدرسة الداخلي ، ونعني منيرة التي تتميز بجسد استثنائي، علاوة على سحنتها الفاتحة كأنها شقراء، وهذا ما يجعلها تقترب من النموذج الأوربي، فهي تصنف خارج سرب المجموعة من الفتيات الأهليات أو المحليات :

" مما يذكي رغبة المستعمر في أن يشعر، على الأقل من حيث المظهر الجسماني، بأنه ينتمي إلى زمرة الغالب " [2].

الآخر ... الأقران

[1] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات ص 169.

[2] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص ٢٧٢.

لقد شكل حضور الأقران، ونعني الصديقات المنتميات إلى تصنيف بيولوجي متماثل، ولكن مختلف ثقافياً نموذجاً مؤسلباً أسهم في خلخة فهم الذات، وتكوين قيم ثباتها، ومن تلك الشخصيات فريدة إحدى الفتيات المحليات في المدرسة، والتي تعدّ ن موذجا مضطرباً أو المؤسلب بخصوص تمثيل فهم الذات الأنثوية الأهلية أو " المحلية" المستعمرة سياسياً (خارجياً) من قبل الأوربي الذي يتمتع بفضاء من حرية يفتقدها الشرقي، في حين يوجد استعمار من نوع آخر (داخلي)، ونعني القيم والحدود الشرقية في حصار المكون الأنثوي، وعلاماته، ومنها الجسد ضمن قراءة سيميولوجية، ففريدة خارج الفضاء الكولونيالي ترتدي حايكاً من الصوف، مع جوارب صوفية، نظراً لتشدد الأب، ولعل هذا ما دفع فاطمة إلى الاعتقاد بأن تشدد والدها يكاد لا يقارن بتشدد بوالد فريدة [1]، غير أن فريدة هذه تظهر عشرين عاماً امرأة متحررة، ولكن في أوروبا. لقد شكلت فريدة في وعي فاطمة نموذجا للصرامة الأبوية المجتمعية القائمة على المراقبة من لدن أب يتوجس من الجسد والروح الأنثوية التي تجسده ا ابنته، فلا جرم أن ترى في التعليم سبيلاً للخلاص:

" توالت السنون بعد ذلك من أجل الدراسة والمعرفة، وكذلك من أجل التقدم الحرفي الخارج والجسد المكشوف ذات يوم!" [2].

إن التمثيلات الخاصة بفريدة تقترب من تمثيلات الفتاة أو العروس التي تغتصب أحلامها العذراء نتيجة قيمة مجتمعية كما حدثتنا عنها فاطمة في الأجزاء الأولى من العمل ، هذه الإحداثيات السردية شكلت وعياً فنيا لدى آ سيا جبار بحيث صاغت قيمها، أو موقفها من عالمها الذي امتثل لقيم سلطوية داخلية وخارجية على حد سواء، الأولى تتمثل بالموروث المجتمعي والتقليد، في حين أن الثانية تمثلت بقيمة استعمارية فرضت نوعا م ن الاستلاب على الأرض والإنسان، بل جعلته في مرتبة أدنى، فالأب الذي يقيم حدودا شرقية على جسد ابنته، يخدم المستعمر، ويعمل معه [3]، وبذلك فإن كلا النهجين قد أسهما بطريقة أو بأخرى في هدم الذات التي فقدت تكوينها العيني، أو معنى الثبوت بوصفه جوهراً للذات، مما انعكس على علاقتها مع ذاتها، والآخر أيضاً.

ثمة صديقات كالفتاة "جاكلين" التي شكلت قيمة مقابلة لمعنى الانعتاق والتحرر الأوربي، ولهذا كانت فاطمة تستمع لصديقتها الأوروبية، وهي تسرد لها مغامراتها عن الحب، والمداعبات، وهنا نقترب من معنى السرد البيني، فالحكي من قبل جاكلين شكل إثارة عالم متخيل، أو أنه قد تحول إلى رغبة مبطنة بتذوق هذا

[1] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 191.
[2] المصدر السابق، ص ١٩٦.
[3] ينظر المصدر نفسه، ص ١٩٩.

العالم، والاستحواذ عليه، على الرغم من أن ثمة متخيلاً شرقي تجاه الأوربية قد تسرب إلى ذهن فاطمة من خلال مجتمعها الذي يصف المرأة الفرنسية بأنها تفتقر إلى العفة [1]. لا ريب أن هذا الحكم النهائي والقطعي والأقرب إلى نموذج الاستغراب ينطوي على شيء من معنى الهدم لفهم الجسد، والتباين الثقافي بين عالمين مختلفين، وهذا مما يعني نوعا من الأزمة في تقدير الموقف من الذات بين العفة المشرقية المقدسة، والمتعة الغربية المتحللة من القيود، غير أن خطاب النص يذهب إلى وصف الشرقيات - من وجهة نظر السارد (فاطمة) بأنهن من يستحققن الإشفاق على أنفسهن [2].

عندما تشرع الصديقة الأوروبية ب الحديث عن القبلات والهمس ، تحضر صورة الأب، ومعاني أن تكون عصية على المساس، مما يعني أن ثمة مسافة تفصل بين المفاهيم تجاه الجسد، ومعنى الحب، وهذا مما يعمق التكوين السردي للسيرة التي ستتعرض إلى تطبيق فلسفي لفقدان معنى النقاء، وبوجه خاص بعد أن تتبادل القبلات مع الخطيب الذي يقوم بتصرف يعكس مو قفه الذكوري والشرقي من خلال إصراره على أن تعتذر فاطمة لصديقتها " منيرة الشبيهة بالأوربيات "- والتي يمكن النظر لها بوصفها " عاملا معاكسا" نزولاً عند مقولات غريماس [3] - على الرغم من الثانية قد تصرفت بسلوك غير سوي حين حاولت أن تستأثر بالعشيق، وتجاهل وجود فاطمة في جلسة جمعت ثلاثتهم ، لقد تسبب مسلك العشيق بجرح داخلي أصاب عمق فاطمة، بل اتصل بعمق وجودها الفلسفي، وثقتها بهذا العالم.

إن بعض الصديقات ، ومنهن "ماق" ذات الأصول الإيطالية، قد مثلت عنصراً إيجابياً حيث تشاركت فاطمة الكتب معها، وحب القراءة، مع إسهام الثانية ب إخراج الأولى من قوقعتها، ودفعها إلى عوالم جديدة، ومن ذلك تتناول حلوى ممزوجة بمشروب الروم، وهذا يعدّ فعلاً من أفعال الخرق للأثر الذكو ري "سلطة الأب" و" سلطة المجتمع " الدينية، وبذلك فهذا الحدث يضطلع بدور سردي، ولكن قيمة التذكر لهذه الشخصية سيصاب بعطب بعد سنوا ت، إذ تتساءل فاطمة عن دور الحرب الجزائرية ، والفترة الاستعمارية في هذا تعميق الحدود بين الصديقتين [4].

---

[1] ينظر المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

[2] ينظر المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

[3] عامل أو دور أساسي على مستوى البنية العميقة عند غريماس، وهو يماثل لدى بروب الخائن، أو البطل الزائف، غير أن غريماس فيما بعد قد عده ضمن البنية السطحية بوصفه دوراً مساعداً . ينظر لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٢، ص ١٢٣.

[4] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 176.

لا شك بأن الضاغط الاستعماري ما زال حاضراً في لا وعي فاطمة، ففي الحفلة الموسيقية ثمة نوع من كسر الحدود ، ولكن ذلك لا يفلت ومن الشعور الكامن بالمشكل الاستعماري ، ولهذا تبدو المسرحية نوعاً من الهدنة حيث تجتمع هذه الذوات المختلفة، ولكن ثمة شعور اً ما بأن هذا النموذج يعدّ استعمارياً على الرغم من تراجعه، ولكن مع ذلك يبقى مسيطراً على الوعي الداخلي مما يشي بأن الذات لا يمكن لها أن تتسم بنوع من أنواع التصالح الثقافي:

" قلت في نفسي : ونحن مراهقو " الدرجة الثانية" بين أبناء البرجوازيين الفرنسيين، ماذا جئنا نفعل في صلب حكاية القرويين المرسومين بشكل ساخر، والمؤداة من قبل عشر بنات وعشرة فتيان، جزء منهم أهالي مهانون، بحيث لأول مرة وبدعوى الاوبريت، بدت المسألة الاستعمارية وكأنها ستخف حدتها؟ " [1].

يتصل موضوع الأوربي بكونه يشي بنسق مقابل، وهذا يرتبط بتشكيل سابق أو متصل بثيمة الجسد، فالعري منبوذ في المجتمع الشرقي، فللجسد بلا الحايك يعني عدم الاحترام في منظورنا، في حين أن ذات العري حين يكون أوروبياً فإنه يحظى بالاحترام والتقدير من قبلنا (نحن) التي تحيل إلى المجتمع المحلي [2].

لا شك بان الا نتقال إلى المدرسة قد شكل عام ل إدراك للفاصل أو الجدار القائم بين عالمهم وعالمها، وهنا تكمن الذات في سياق الآخر حسب التعبير الذي أشار له ريكور، فالأطفال من العالم المستعمر " المحلي" لا يتقنون اللغة الإنجليزية، وهم فقراء ، وبيوتهم متداعية تفتقر إلى الكهرباء، وهذا يكاد يتصل بسياقات ما بعد كولونيالية، قد أفاض الباحثون بالحديث عنها، وبالتحديد فرانز فانون في كتابه "معذبو الأرض"، فقد أشار إلى الرغبة بامتلاك ما لدى المستعمِر الأوربي [3]. غير أن هذا المدرسة حملت معها ذلك رى، تشي بانفصام بين عالمين، فقد تركت ندوبا على الذاكرة، ففي يوم كرمت الفتاة بجائزة كونها الأولى ، غير أن الجائزة التي رفعتها باقتدار كانت كتاباً على غلافه صورة المارشال الفرنسي، وبينما كانت تلوح به أمام والدها مفتخرة، ولكنها سرعان ما شعرت بأن أباها ابتسم ابتسامة نصف ساخرة [4]. لقد شكل هذان العنصران المكون الاستعماري، وتقاطعه مع الأب الذي لم يرق له هذا الأثر الكولونيالي بوصفه انعكاسا أو قلقا لفهم الذات من

---

[1] المصدر السابق، ص ٢٧٥.

[2] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 69.

[3] يقول فرانز فانون حول هذه الظاهر التي تخلص فعل الامتلاك والاستحواذ على عالم الأوربي من قبل المحلي : " ما من مستعمَر إلا ويحلم مرة في اليوم على الأقل، أ ن يأخذ مكان المستعمر ". كما يشدد على الفوارق الاقتصادية بين عالمي المستعمِر والمستعمَر. للاستزادة ينظر: فرانز فانون، معذبو الأرض، ص ٢٢.

[4] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 41.

خلال الجمع بين عالمين متنافسين ، وشديدي التعقيد . فلأب الذي يعمل معلماً في مد رسة فرنسية، مع التقدير للأثر الكولونيالي، علاوة على تشبي هه بخيبات أمل متتالية طالت الفتاة الصغيرة التي كانت حدودها الإدراكية قاصرة، ولكنها أدركت أبعاد الأشياء من خلال الذاكرة الاستعادية، وبذلك فإن السرد يبدو متعالقاً مع زمنيين، زمن الحادثة، وزمن التأويل في ضوء السياقات التي بدت غير جلية في الزمن الأول.

لقد كان وجود "فاطمة" أثناء الدراسة في العاصمة مبعثاً لتكوين تجربة تنهض على معنى التماثل بالأوربي تبعا للمسلك، فالمشي والتسكع وحدها كان يدفع محيطها المجتمعي لأن يعتقد بأنها أوروبية، وهذا يتزامن مع اللغة التي ينبغي أن تنحاز إلى المقدس الأوربي، فمن كان يحترمك قبل قليل سيتحول إلى عدواني عندما يتعرف عليك وأنت تتحدث العربية، وبذلك فإن هذا الانتهاك للقيمة الثقافية والعرقية للعربية بات مجالا مؤسلباً، وبذلك فإن ميزة الحكم على الشخص لا تكمن من خلال جوهره إنما تكمن من خلال عرقه، ولغته، وهذا يتحقق في المجتمع الشرقي الذي يخاف الأور وبي، ويهابه، ولكن المرأة عينها " المحلية" تتحول إلى فاجرة، كونها لا ترتدي الحايك[1]، وتسير وحدها في الشارع، فهي تحتاج إلى قناع كي تطمس هويتها التي تبددت، وفقدت ثباتها، إنها هوية تخضع للمزاج الثقافي والاجتماعي :

ولكن أيضا " مقنعة"، نعم، مقنعة باللغة الأجنبية ! بينما في الخارج كونك لغتك الأم، وتشي بك بل يكاد يشار إليك بالبنان" [2].

تدمير الأنا ... الذكورة المؤسلبة

يمثل الشاب "طارق" النموذج الجندري المقابل" عاملاً من عوامل إدراك الذات، ومدى لا ثبوتيها أو هشاشتها أمام الآخر، وهنا تبرز إشكالية هذا الآخر الذي ترغب في أن تخضعه لمنطقها، أو فعل تغريبه عن محيطها، ولهذا فإنها تتنبه إلى أنها لم تعد تدرك ذاتها، لقد حدث تحول مما يقترب من تفسير ين بهدف تثمين علاقة الأنثى مع الذكر الذي يبدو مفارقاً للتمثيل الكامن لنموذج الأب مبدئياً، ولكنه من جهة أخرى يضفي على الذات شكلاً من أشكال الانزياح نزولاً عند تنظيرات ريكور . إن مشهد التنزه مع هذا الشاب قد أضاف للفتاة شعوراً جديداً:

بعد انقضاء فصل الجنسين العريق، تجمد الكلام الأصيل في صلب مجتمعنا . " هذا ليس أنا "، قلت في نفسي هذه المرة " [1].

---

[1] ينظر آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص ٣٩٦.

[2] المصدر السابق، ص ٣٩٧.

هذا اللقاء بين ذاتين من جنس مختلف ، يقع في سياق مجتمع متحفظ، ولهذا يتخذ هذا اللقاء بسريته واقعا مختلفاً، إذ يسهم في تحول الذات، واغترابها عن نفسها، فهي ترغب أيضا في أن تجعله غريباً عن مجتمعها كي تتخلص من حرج ثقافي ما، أو صورة ضاغطة تكمن في المتخيل، وهي صورة الأجنبي الذي يراه المجتمع الأهلي " المحلي " دائما بصورة الجميل، ولهذا لا بد أن نتساءل عن هذه الصورة العميقة في تحديد الآخر الأجنبي بوصفه نموذجا إيجابياً لا مؤسلباً، في حين أن المحلي أو الأهلي في عمق وعيه، يرى نفسه أقل جمالاً، أو ربما يفتقد إلى قيم جمالية لا يتمتع بها سوى الأجنبي :

" حدثني عن مدينته في الجنوب. هل أسبغت عليه سريعاً جمال الأجنبي داخل مجتمعنا الأهلي "[2] .

ولكنها تعاطت مع طلب القبلة الا ولى بمنطق شرقي كامن يشي ببنية ثقافية ومتخيل عميق، مما يعني بأن ثمة نوعا من التشظي بين الذات الثقافية، والذات الأنثوية:

" أما أنا العفيفة، ظلت ردة فعلي، في ذكراي، مبالغا فيها بشكل سخيف " [3].

لقد عاودت التفكير بجسدها ، وتحديداً عندما لمس الشاب يدها، فالجسد قد تعرض للتدنيس من منظور فاطمة ، هذا الإدراك الشعوري للجسد كان قد تغذّ ى على موروث ثقافي، ومجتمعي، وعائلي، يتصل بقراءة الأب – المجتمع – الذكر لخارطة الجسد الأنثوي، وتكريسه بوصفها شيئاً متعالياً يجب أن يبقى نقياً، لا مرئياً، ولهذا قرأت في البداية طلب الشاب القائم على الرغبة بتقبيلها على أنه قلة احترام لذاتها، فهي قائمة بوجودها الجوهري على مكون اجتماعي أو ثقافي عميق بوصفها بوصفه فتاة مسلمة، وهكذا فقد بقيت هذه الحادثة مستمرة الحضور في ذاكرتها، حتى بعد أن أمست في الأربعين من العمر.

يلاحظ في سياق التداخل بين هذه المستويات عودة اللغة التي تحضر في علاقتها مع هذا العاشق، فهي تفضل العربية على الفرنسية باعتبارها لغة حب، فهي لا تكاد تشعر بأثر الكلمات الفرنسية التي بدت حيادية، في حين أنها بالعربية بدت تكوي ناً آخر، فهي لغة الأجداد، والشعر العربي، وهذا مما يعمق تداخل قطاعات المستويات الدلالية عبر أكثر من مكوّن بهدف خلق نموذج لغوي مؤسلب كامن في الوعي.

لقد قادت هذه العلاقة إلى اضطراب في فهم العالم برمته، فحين تمكنت صدي قتها من الإيقاع بينها وبين العشيق طارق، هذا الفتى المحلي الذي لوث نقاءها ببعض القبلات التي منحته إياه بداعي الحب مما تسبب بشرخ عميق طال الذات التي فقدت ثبوت هويتها ؛ نتيجة عوالم الآخر الذي بدا مؤسلباً بدءاً من الأم

---

[1] المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

[2] المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

[3] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص ٢٩٧.

مروراً بالأب، ولكن ليس انتهاء بالعشيق، والصديقة، أضف إ لى ذلك قيماً مجتمعية مؤسلبة بالكلية، يتقاسمها مجتمعان على طر في نقيض (المستعمِر والمستعمّر) مما أضفى على هذا العمل قيمته في بيان انهدام الأنا وقلقها نتيجة أنساق ثقافية متداخلة ومتشابكة.

خاتمة

نستنتج في الختام، بأن الأنا التي حاولت آسيا جبار أن تجسدها تمثيلاً في هذا العمل السيري الروائي، قد اتسمت بفقدانها لقيم الثبوت، كونها قد خضعت لانساق مؤسلبة أفقدتها وحدتها، فضلاً عن تشظيها، وانخلاعها عن مألوفها الثقافي الذي شيدته بوعي طفولي، ولكنه سرعان ما فقد خصائصه، وبذلك تشكلت هوية سردية مضطربة ا نطلاقا من مقولة بول ريكور التي تضافرت مع تنظيرات جاك لاكان القائمة على الوعي الطفولي للأنا التي تتنقل إلى نظام لغوي، ولا سيما في توصيف العلاقات التي سادت بين الأب والأم بوصفهما عاملين مؤسلبين، وبينهما تقبع الأنثى بجسدها، وتكوينها المختلف، أضف إلى ذلك الأقران " الصديقات" و"العشيق الذكوري "، علاوة ع لى اللغة، والمجتمع، والأثر الكولونيالي الممثل بالأوربي المستعمر، وهكذا، فلا جرم أن يضطرب التكوين الذاتي للأنا قياساً على سيرة آسيا جبار بناء على مرجعيتها الواقعية حيث نزعت آسيا جبار خصائص ذاتها العلمية حين استبدلت اسم فاطمة بآسيا، واللغة العربية باللغة الف رنسية، غير أن جوهرها الفكري بقي إشكالياً يراوح بين نقد سلبية المجتمع المحلي، وخصائصه الثقافية، بالإضافة إلى سلبية المستعمر، ومسؤوليته عن هذا الاضطراب المتعدد المستويات في تشكيل الأنا الجوهرية الثابتة.

قائمة المراجع والمصادر:

1. آسيا جبار، بوابة الذكريات، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر، سيديا، ٢٠١٤.
2. بام موريس، الأدب والنسوية، ترجمة سهام عبد السلام، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002.
3. بول ريكور، الذات عينها كآخر، بول ريكور، ترجمة جورج زيناتي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.

4. رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة؛ خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣.
5. سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، ط1، عمان، الدار الأهلية، 2008.
6. فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، نسخة الكترونية: http://al-taleaa.net
7. كاميليا باليا، أقنعة جنسية؛ الفن والانحطاط من نفرتيني إلى إميلي ديكنسون، ترجمة ربيع وهبة، ط 1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2015.
8. لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط١ ، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٢.
9. مالكوم بوبي، جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المشروع، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1999.
10. Jacques Lacan, Ecrits, translated by Bruce Fink, New York. W.W. Norton & company, 2006, P.94.
11. Pellauer, David and Dauenhauer, Bernard, "Paul Ricoeur", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Winter 2016 Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL = <https://plato.stanford.edu/archives/win2016/entries/ricoeur/>.